طبقـات علمـاء افـريقية وتـونس

تأليف : أبي العرب بن احمد بن تميم القيـرواني ، تحقيق : علي الشابي ، وتصحيح : حسن اليـافي ، الـدار التـونسية للنشـر ، تـونس 1968 ، 254 صحيفة

تقديم : الحبيب الشاوش

يندرج هذا الكتاب في مجموع كتب التاريخ والأخبار والتراجم الخاصة برجال الدين من المحدّثين والقضاة والفقهاء المنضوين تحت اسم « العلماء » ممن عاش بإفريقية وتونس ، وقد سبق أن عُنِـي بتحقيق هذا الكتاب ونشره الشيخ محمد بن أبـي شنب الأستاذ بالمدرسة الثعالبية بالجزائر سنة 1914/1332 ، في مجموع يحمل العناوين التالية :

- كتاب طبقات علماء إفريقية ، تأليف : أبـي العرب محمد بن أحمد ابن تميم التميمـي .
- وكتاب طبقات علماء إفْريقية ، تأليف : محمد بن الحارث بـن أسد الخشني .
- وكتاب طبقات علماء تونس ، تأليف : أبـي العرب محمد بن أحمد ابن تميم التميمـي .

وقد صدر هذا الكتاب مصحوباً بترجمة إلى اللّغة الفرنسية وتعاليق بقلم المحقّق ، سنة 1915 بباريس ، تحت عنوان :

Classes des Savants de l'Ifrīqīyā par Abū-l-ʿArab Moḥammed ben Aḥmed ben Tamīm et Moḥammed ben al-Ḥāriṭ ben Asad Al-Ḫošanī

ومن يتصفح فحواه ، كما حققه الشيخ ابن أبي شنب ، يلاحظ أنه ينطوي على سبعة أجزاء منها الثلاثة أجزاء الأولى والجزء الأخير : من تأليف أبي العرب ، لأحمد بن محمد الطلمنكي ، أما بقية الأجزاء (الرابع والخامس والسّادس) فمن تأليف محمد بن الحارث بن أسد الخشني ، لأحمد بن محمد الطلمنكي (1) .

وقد خُصّصَت السّتّةُ أجزاء الأولى لعلماء إفريقية ، أما الجزء السابع فلعلماء تونس .

ومن الملاحظ أن الكتاب متبوع بفهارس لأسماء الرجال والنساء ، والأبيات الشعريّة ، وأسماء الكتب ، وأسماء القبائل ، وأسماء الأماكن ؛ ولمحقّقه فضل نقله إلى اللّغة الفرنسية مساهما هكذا في ترويجه — فضلا عن البلدان العربية — في العالم الغربي وعالم الاستشراق عامّة ، وقد صدر

(1) تفصيل هذه الأجزاء كما يلي :

الجزء الأول : ص ص 1–39 : تأليف أبي العرب ... لأحمد بن محمد الطلمنكي لعمر بن علي بن أحمد بن عطيّة بن يوسف بن أبي بكر الأنصاري .

الجزء الثاني : ص ص 44–94 تأليف أبي العرب ... لأحمد بن محمد الطلمنكي .

الجزء الثالث : ص ص 97–125 تأليف أبي العرب ... لأحمد بن محمد الطلمنكي .

الجزء الرابع : ص ص 129–155 : تأليف محمد بن الحارث بن أسد الخشني لأحمد بن محمد الطلمنكي .

الجزء الخامس : ص ص 159–183 : تأليف محمد بن الحارث بن أسد الخشني لأحمد بن محمد الطلمنكي .

الجزء السادس : ص ص 187–241 : تأليف محمد بن الحارث بن أسد الخشني لأحمد بن محمد الطلمنكي .

الجزء السابع : ص ص 245–256 : تأليف أبي العرب ... لأحمد بن محمد الطلمنكي « ذكر علماء تونس » .

الكتاب في طبعة أنيقة واضحة استغلها البحاثون العرب والمستشرقـون منذ ما يقارب الستين عاما .

على أن للمحققين علي الشابي ونعيم حسن اليافي فضل العناية بإعادة نشر الكتاب وإضافة الكثير ممّا أهمله ابن أبـي شنب مثل تقديم الكتاب بدراسة لعصر المؤلف وبيئته وحياته ومؤلفاته ، وإلحاق ذلك بما جاء في أمهات المصادر من تراجم أبـي العرب ، أو إعقابه — كما فعل المحققان في آخر الكتاب — بنقول كتب الطبقات عن أبـي العرب ، ومما يلفت النظر في هذه الطبعـة الجديدة كثرة التعاليق في الحواشي والتراجم لمختلف الأعـلام الـورادة أسماؤهم في الفحوى وبيان المصادر التي استخلصت منها هذه التراجم ولئن بدا المجهود كبيرًا والحرص ظاهرًا على إعادة تحقيق الكتاب تحقيقا علميّا أوفر ، فلننظر في مدى توفّق المحققين ، فنبدأ باستعراض أقسام الكتـاب ومشمولاته قبل أن نبدي وجهة نظرنا في قيمته وإبراز مزايا التحقيق أو هناته إن كانت ...

لقد ذكرنا أن من فضل المحققين حرصهما على تصدير الكتاب بمقدمه (2) عنوانها : « الأرضيّة الحضارية لعصر أبـي العرب القيرواني » اشتملت في قسمها الأول على ثلاثة فروع تناولا فيها بالبحث :

(أ) الصراع السياسي (ب) الصراع المذهبـي (ج) أسلـوب التفكيـر .

وخصص القسم الثاني من هذه المقدمة « لأبـي العرب وكتابه » واستعراض مؤلفاته ، وعقب ذلك يأتي « ملْحق المقدمة » (3) بعنوان « أبو العرب في كتب التراجم » وقد عرف المحققان — بعد الحديث عن مميزات عصر أبـي العرب وبيئته من الناحية السياسية والمذهبية والفكرية عامّة — بترجمة حياة

(2) ص ص 7–31 . ورد في ص 31 تاريخ تأليف هذه المقدمة ومكانها (= القاهرة (الجيزة) في 15 رمضان 17/1384 جانفي 1965) .

(3) ص ص 33–40 .

(4) المقدمة ص 25 .

المؤلف ومما ورد في هذا الشأن أنه ولد بالقيروان بين سنة 864/250 و873/260 ، وقد عاصر أبو العرب قيام الدولة الشيعية في إفريقية (5) وهو « يشهد بأسف التغيرات الكبيرة التي طرأت على السّنّة وإعدام العلماء الذين حافظوا على آرائهم السّنّيّة ، والإسراف في الغرائب وشتم الصحابة علنا » . ولما ثار « أبو يزيد صاحب الحمار » على العبيديين انضمّ له أبو العرب مع صفوة من علماء القيروان ورجالها ، واتجهوا إلى المهدية فواقعوا الشيعة في مكان قريب منها في رجب 944/333 ، وبعد أن حققوا بعض التقدّم تفرقـت صفوفهم إثر تخلّـي أبـي يزيد عنهم الذي خشـيَ سلطتهم لو قدّر لهم الظفر ، ويقال إن أبا العرب لما خرج لهذه الحرب درّس كتابيْ الإمامة « لمحمّد بن سحنون » وكان يقول : « سماع هذين الكتابين هنا عليّ أفضل من كل ما كتبت » .

أما وفاة أبـي العرب فكانت لثمان بقين من ذي القعدة أو ذي الحجـة سنة 944/333 ، ودفن بباب سَلَم بالقيروان .

هذا — باختصار — ما نعرف عن المؤلف .

وبخصوص البيئة التي عاش فيها أبو العرب فقد لاحظ المحققان أنهـا امتازت بنوع من التزمّت والجفاف الفكري والضحالة في مجال الإنتـاج الأدبـي والشعري منه بالخصوص ، فيقولان بالحرف الواحد :

« ... ليس غريبا أن نجد عندهم (أي عند المغاربة) صوت الشعر خـافتا وصوره باهتة لأنهم يعتبرون الخيال والإمعان فيه ضربًا من التحلّل ... » .

ثم يستطردان فيلاحظان أنه « كان ذلك في الوقت الذي عذبت فيه الغنائية في الشعر العربي ورقّ الخيال وتـألّقت صورُه وانطلقت العـاطفة بكلّ أبعادها في بغداد والكرخ والبصرة وحلب والرّي ... » (6) .

(5) نفس المرجع ص 26 ، نقلا عن المدارك ، 73/2 أ .
(6) المقدمـــة ص 20 .

ورأينا – في هذا الموضوع – أنه لا يجب التسرّع في إبداء مثل هذه الأحكام بشأن الحياة الأدبية بإفريقية في عصر أبي العرب ، لاسيما وأنها لم تحظ إلى اليوم بما يكفي ويشفي من البحث والدّراسة لنعلم حق العلم ما كانت عليه من جفاف أو خصب ... في ميدان الإنتاج الأدبي عامّة والشعري خاصّة ... على أننا نعلم – مثلا – اليوم بفضل الدراسات والبحوث العلميّة أن هذه الرقعة من الأرض – أرض إفريقية – قد أنتجت خلال العقود والسنوات التي تلت عصر أبي العرب ، عددا كبيرًا من الكتاب والشعراء ، فعسى أن يكون عصر مؤلفنا حافلا – كما أكّد ذلك العلامة حسن حسني عبد الوهاب في مؤلفاته عن إفريقية – بالإنتاج الفكري والأدبي وأن يكون قد ظهر فيه ثلّه من الشعراء الفحول ... هذا ما ينبغي التحرّى فيه واستيعاب درسه قبل البتّ فيه بإصدار الاراء المتسرّعة في أحكامها بشأنه ...

وأما الطريقة التي اتبعها المحققان فقد صرّحا بشأنها : « ولما عزمنا على نشر الكتاب لأهميته بحثنا عن مخطوطات له في أكثر مكتبات العالم فلم نعثر على أيّة مخطوطة ، والذي يبدو أن المخطوطة التي نشر عنها ابن أبي شنب النّص وقعت في يد لم نوفّق إلى الوصول إليها ، لذلك كان اعتمادنا على النسخة المطبوعة » .

وعن الهدف الذي من أجله عمدا إلى إعادة نشر الكتاب صرحا قائلين : « وبعد فنحن بهذا العمل الذي نعتبره باكورة أعمالنا في الحقل المغربي إنما نهدف إلى الكشف عن الحياة الفكرية في المغرب الإسلامي في عصوره الأولى ... » .

وإننا نبارك هذه العناية بمثل هذا الكتاب النفيس الذي يرجع الفضل في المبادرة إلى تحقيقه والتعريف به إلى الشيخ محمد بن أبي شنب ، وفضل الحرص على إعادة تحقيقه تحقيقا علميًّا بمزيد من الدّقة والشمول في آن واحد إلى المحققين الشابي واليافي .

وقد اجتهد المحققان وأصابا في تصدير الكتاب بمقدمة ضافية تعرضا فيها لمميزات بيئة المؤلف وحياته على أنّ «الملحق» الذي أتبعاها به ـ حيث أوردا ترجمات أبـي العرب في المصادر القديمة ـ نعتبره غير ضروريّ خاصّـة وأن هذه المصادر معروفة ، يستطيع القارىء أو الباحث أن يرجع إليهـا ليستكشف بنفسه ما يريد بشأن ترجمة المؤلف ...

على أننا استحسنا ، من ناحية أخرى ، ما عمد إليه المحققان في الحواشي من إثبات تراجم الأعلام وذكر المراجع والشروح والتعاليق الشافية لرغبة كل باحث ، وكذلك الفهـارس التي وضعاهـا للايـات ، والأحاديـث ، والأعلام ، والأماكن والبلدان والأربطة والقصور ، والقبائل والأفخاذ ، والأبيات الشعرية ، والكتب والمراجع .

ولئن فهرس ابن أبـي شنب لأغلب هذه الأبواب فقد أهمل تراجـم الأعلام الواردة أسماؤهم في الكتاب كما أهمل بيان المصادر والمراجـع الصالحة لإطلاعنا على حياة المؤلف وتراثه .

ولا يسعنا إلا الإشادة بما وضعه المحققان من ملحق في ا خر الكتاب ، يشتمل على « نقول كتب الطبقات عن أبـي العرب » ومنها :

(أ) ما نقل عن أبـي العرب خارج التراجم تحت عنوان « أعلام ذكرهم أبو العرب في كتابه دون ترجمة ، تورد عنهم كتب الطبقات تفاصيـل منقوله » (7) .

(ب) أعلام ترجم لهم أبو العرب (8) ، تحت عنوان : « أعلام ترجم لهم أبو العرب وجدنا عنهم تفاصيل أخرى في كتب الطبقات منقولة عنه والتراجم مرتبة حسب ورودها في الطبقات » .

(7) من أهـم المصادر : « الريـاض » و« المعـالم » .
(8) ص ص 232–237 .

(ج) أعلام حذفهم الطلمنكي أو ترجم لهم أبو العرب في كتبه الأخرى ووجدنا إشارات لهم في الكتب اللاحقة ، ومن الملاحظ أن التراجم الواردة مرتبة حسب تاريخ الوفاة» ، وبيّن المحققان أن « الذي لم يعثرا على سنة وفاتـه جعلاه في نهاية الترقيم » (9) .

ولايخفى – ختاما – ما ينطوي عليه هذا الكتاب من جمّ الفوائد – ممّا يعلّل المبادرة الطيبة إلى تحقيقه وإعادة نشره – لاسيما وأنه يطلعنا على من جادت به أرض إفريقية من علماء ، فهو من هذه الناحية صورة ناطقة عن مساهمة المغاربة – قديما – في التراث الفكري الإسلامي بوجه عامّ ، وعن روح الاصالة التي تميّزت بها إفريقية عن بلاد المشرق في مجال العلوم الدّينيّة ، ويعتبر الكتاب – بالنسبة إلى تونس – تراثا نفيسا يكشف النقاب عن ثلة من رجال الفكر عاشوا في ربـوع هذه الدّيـار ، كما تتجلى من خلال هذا الكتاب الطريف مكانة أبـي العرب القيرواني الذي أخذعنه ونقل وتتلمذ كثير من رجال العلم مثل أبـي بكر المـالكي صاحب « رياض النفوس » ، وابن فرحون صاحب كتاب « الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب » ، والقاضي عياض صاحب كتاب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك » ، والدّبـاغ صاحـب « معـالم الإيمان في معرفة أهل القيروان » ، وغيرهم ممن جاء بعدهم ...

ح. الشـاوش

(9) المصادر : « المدارك » – « الريـاض » – « المعـالم » – « الديبـاج » .